العربي والحرية

بقلم عبد الله يونس

ما من مرة استطاع الانسان ان يمتلك فيها حريته ، الا واستطاع ان يرتفع الى افق العطاء والاشعاع على مستوى الحضارة الانسانية .

هذه حقيقة يؤكدها تاريخ الحرية لدى الانسان ، ويؤكد الى جانبها حقيقة اخرى لاتقل اهمية ، وهي ذلك الارتباط الحار والدموي ـ ان صح التعبير ـ القائم مابين الحرية والنضال عبر تاريخ الحرية الطويل الزاخر .

وهاتان الحقيقتان اللتان تشكلان ركيزتي ذلك التاريخ الاساسيتين، تؤلفان ايضا جوهر هذا التاريخ وكل مضمونه.

والعربي الذي استطاع ان يرتفع يوما الى هذا المستوى واستطاع ان يرفع مشعله بقوه ، منيرا للركب الانساني مراحل مظلمة وصعبة من دربه ، هذا العربي ، قد لايكون وعى هاتين الحقيقتين عندما قذف بنفسه الى الساح ، ولكن من المؤكد انه بقدر ماكان يزداد انغماسا في نضاله ، كان يحس باشتداده الابدي الى هذا النضال الذي هو قدره ، وبالتالي كان يحس بقوته وبقدرته على امتلاك حريته .

ومن المؤكد ان ماقدمه العربي للانسانية ، انما كان ثمرة لتلك اللحظات الباهرة التي امتلك فيها العربي حريته، فاستطاع ان يجاوز ذاته ، وان يستشرف تلك المجالات المعجزة من الحس البطولي ، وان يمتلك في النهاية كل قدراته على الخلق والتوهج .

والعربي المعاصر الذي بدأ يعيش قضية بعثه الانساني وتجدده الحضاري ، قد ادرك منذ البدء ارتباط قضية بعثه وتجدده ارتباطا وثيقا بقضية تحرره . والشيء الذي كانت تؤكده التجارب التي كان على العربي ان يخوضها هو انه كلما ازدادت قضية الحرية لديه تعمقا ، كلما اقتربت قضية البعث من جذورها الانسانية العميقة والصحيحة .

ولقد كان تحرير الارض العربية من الاجنبي ، الوجه الاول لقضية تحرر العربي نفسه ، ومنذ الوقت الذي استطاع ان يحصل فيه العربي على الاستقلال في بعض اجزاء من ارضه ، بدأت القضية تتكشف عن اشد وجوهها صميمية وعمقا .

فالعربي الذي عاش فترة الانحطاط ، تسحقه قرون من العبودية ، كان من البدهي ان يؤمن بان قضية تحرره باكملها انما تتركز في طرد الاجنبي ، وان الحصول على الاستقلال ، انما هو غاية المعركة ومنتهاها ! ولكن ماحدث هو ان حرارة معركة الاستقلال التي خاضها العربي كانت كافية كي تصهر تلك القشور التي بقيت تغلف فترة طويلة مشاعر العربي النبيلة ،وحدسه الاصيل ، وتطلعاته الوجودية العميقة فكان من البديهي ان يتساءل بمرارة وعمق ، ذلك العربي الذي استقل . هل هو حر حقا .؟!

وهل انتهت كل القضية عند هذا الحد ؟!

وكان لهذا التساؤل الحار ، فضل طرح قضية تحرر العربي بكل ابعادها الانسانية الاصيلة ، على مستوى الوجود العربي .

وبدأ العربي يدرك مع تفتح وعيه الجديد ان حريته ليست شيئا ناجزا يمتلك مرة والى الابد ، ولكنها تجاوز مستمر للواقع .. انها قدرة دائمة على خلق الموقف وامتلاكه ،ومن ثم تجاوزه في حدث بطولي باهر .. انه ابدا امام صراع دائم ، صراع انساني بقدر ماهو مضن ، انه كي يتحرر عليه ان يمتلك رحيته في كل لحظة ، في كل موقف ، في كل حدث !

ولهذا كله ادرك ايضاان العربي الاول لم ينقطع عن الاشعاع الا منذ اللحظة التي انقطع فيها عن امتلاك حريته، وعندها فقط كبا ـ وسقطت الرايه ـ وانطفأ المشعل .

وكان ان اصبح النضال للمرة الثانية قدر العربي !

وكان من الطبيعي ان يحمل هذا الطرح لقضية الحرية، وعلى هذه الدرجة من المساس بالوجود العربي الراهن ، في مضمونه ، طرحا لبنية الواقع الذي يتحرك فيه العربي المعاصر ، ولكل مكتنفات الوجود العربي ومواصفاته .

ولم تكن مشكلات الواقع العربي غريبة كل الغرابه عن مشكلات الانسان في هذا العالم .

فالواقع العربي مجزأ والقيم الاجتماعية بالية والعدالة مفقودة .

وعلى مثل هذه الركائز الثلاث ، لم يكن من الممكن أن يقوم وجود عربي متكامل ايجابي ونام ، وحرية العربي بالتالي لايمكن الا ان تظل شوهاء مبتورة !

ولكن الحرية كنمو يهدف الى التكامل ، وكتجاوز مستمر للواقع ، كان من الواضح ان تؤدي الى الرفض الكلي للواقع العربي المتفسخ ، وان تؤدي بالتالي الى رواق اخر احفل بالاضواء .. الى الثورة .

ولقد كان من الممكن ان يقف « جيل الرفض » الجيل الذي نفض يديه من الواقع الفاسد ، عند هذه الخطوة التي هي خطوة الى امام في مجال القضية العامة ، والتي هي في الوقت نفسه ، ممارسة ناقصة وسلبية للحرية ، بالنسبة الى الجيل ذاته !

ولكن خصوبة الاحداث وتدفقها ، او انه شيء اخر يدخل في صميم نفسية العربي وتميزه ، هو الذي جعل « جيل الرفض » نفسه هو « جيل الثورة » الذي كان عليه ان يعيش احسم مراحل القضية واشدها حساسية ـ المرحلة التي ستحدد خط السير بالنسبة للعربي سنوات طويلة في المستقبل ـ تلك هي مرحلة بلورة الاهداف ودفعها الى

فمة موجة المد الثوري العربي . ودفع القضية بذلك اشواطا بعيده الى الامام .

وبذلك برزت الى الوجود العربي اهدافه الاساسية التي كان عليها ان تهب النضال العربي مضمونه ومحتواه .. وهكذا : الى جانب الحرية كمطلب اكبر ـ تبلور الهدفان الاخران : الوحدة والاشتراكية .

وكانت الوحدة للمرة الاولى تعني شيئا اعمق من ازالة حدود سياسية زائفة مزروعه بافتعل في قلب الوطن العربي .. كانت تعني خلاص الكيان العربي نفسه من التمزق وبروزها الى العالم كيانا واحدا متكاملا اثر عملية انصهار وخلق فعليين .

والاشتراكية كانت تعني شيئا اكثر من تحقيق مستوى ادبى من المعيشة للانسان العربي ،اذ كانت تهدف الى خلق التربة الغنية الصالحة التي تتغلغل فيها جذور الكيان العربي المتكامل ، والتي يستطيع فيها هذا الكيان ان ينمو ويزهو ويثمر ، ويقدم للانسانيه اشياء جديدة غنية .

ولقد كانت الوحدة كتجاوز لواقع التجزئة من جهة ، والاشتراكية كتجاوز لواقع الظلم والفساد من جهة اخرى ، انما تهبان الحرية لدى العربي مجالا جديدا وخصبا لتحقق من خلاله ، وهذا يعني انهما تهبان النضال العربي نفسه محتواه الجديد لذي سيستقطب القوى الثورية الجديدة .

ولقد تهيأ لجيل الثورة ان يلتقي بقيادة سياسية من نفس المستوى ، وكان هذا الالتقاء دعما قويا ، وضمانة كبيرة لمرحلة الثورة ولقضية البعث بأكملها ، اذ ان قيادة سياسية كهذه تملك الكثير مما تستطيع تقديمه ، واول هذا الكتير . التجارب .

فالقيادة السياسية الواعية تستطيع ان ترصد الاحداث بمهارة لتدفع بالعربي وفي اللحظة المناسبة الى قلب المعركة .. الى قلب تجربة غنية تصهره وتدفعه للارتفاع الى مستوى القضية ، والى ان يحمل مسؤولياته برجولة وشجاعة .. والنتيجة ستكون حتما كسبا للعربي ، اذ ان التقاء العربي بالعربي ، ذلك الالتقاء الحار من خلال التجربة سيكرس ابدا وحدة الكيان العربي ،وسيكون كسبا في مجال الكشف عن الذات ، والنمو عبر القضية ، والتمرس بالنضال ، والامتلاك للحرية .

ولذلك فالعربي اليوم لايستطيع ان يبتهل الى الله كي « لايدخله في التجارب » فهذه التجارب هي كل املنا ، من خلالها فقط ، من خلال الصراع الدامي المرير ، ومن خلال التضحيات والتجارب الاليمة ، سيكتشف العربي ذاته ـ جوهره ـ اصالته ، وستكون حرارة هذه التجارب كافية لصهر كل ماهر زائف ، ولهذا سيتمكن العربي من خلالها ايضا من اكتشاف كل ارتباطاته العميقة ، والانسانية وان يمارس في كل هذه الاكتشافات حريته ممارسة غنية ستكون سبيله الوحيد الى البعث ، اي الى الاشعاع والعطاء على مستوى التقدم الانساني .

كلية الطب ـ جامعة دمشق

عبد الله يونس

النهر الأسود

... النهر الاسود منبجس
من قلب مدينتنا الكبرى ،
نهر أسود ،
ثعبان شرس ، يتأود
مغتسل بالزيت ممرد ..
لا صوت له ،
لا موج يلوح على وجهه
وعلى مرأى الشمس تعرى .
جسدا يعبد
من قصب تصفر فيه الريح
شدو مبحوح
صلى في شطيه وبدد
في صفحته ظلا أربد
.. نهر أسود
يتلوى كدخان المعمل
عب الماء ، الزيت المهمل ..
من ثغر مدينتنا الأدرد
ومضى عنها مثل مشرد
القاع ملوثة تخجل
والصفحة كالوجه الاجرد
والشط مباءة ديدان
تتبذل فيها وتردد
اغنية الوحل الريان
بالموت ، وبالحقد الاسود ...

دمشق

علي الجندي